الفصل الرابع
التربية والتعليم والثقافة
فى التصور الإسلامى

وبهذا نوشك أن نصل إلى نهاية الشوط إلى تقديم التربية والتعليم والثقافة فى لباس إسلامى وإطار إيمانى، حيث وجدنا المؤلف فيما يتناول الجذور التاريخية للغزو الفكرى ويعرض لواقعه القاتم بالفعل وآثاره الضارة، ثم إنه بعد ذلك يختم بحثه القيم بتقديم: التربية والتعليم والثقافة فى إطار الإسلام، فى ثلاثة فصول:

الأول: التربية الإسلامية.

الثانى: التعليم الإسلامى.

الثالث: الثقافة الإسلامية.

ويطوف بنا المؤلف الكريم فى الفصل الأول حول بستان التربية الإسلامية فيقدم بين أيدينا زهراتها ورياحينها فى صورة مفاهيم واضحة لا لبس فيها ولا غموض، فيحدد المفهوم الذى يقصده بالتربية الإسلامية، ويعرض هدفها، ومناهجها، ويختم هذا الفصل بذكر أبرز معالم منهج التربية الإسلامية.

وقبل أن ننتقل إلى التفصيل بعد ذلك الإجمال ينبه السيد المؤلف إلى الخلط الذى يقع فيه البعض فى تناولهم التربية والتعليم والثقافة «حيث تختلط هذه القيم ومفاهيم التربية الغربية وتتداخل كثيراً ولا سيما ذلك التداخل المبهم بين التربيه والتعليم».

ويقدم لنا بعد ذلك مباشرة الفهم الإسلامى للتربية فيحمل بقوله: «فالفهم الإسلامى للتربية أنها الإعداد الروحى والنفسى للفرد بحيث يكون مؤهلا لتلقى التعليم والثقافة على نحو موجه، فيأخذ ما هو أساسى وبناء وما هو بسبيل أن

يمده بالقدرة على أداء رسالته فى الحياة والمجتمع، هذه الرسالة الجامعة بين هدفى الدنيا والآخرة، من حيث البناء والعمل والسعى إلى آفاق التقدم، دون أن يكون ذلك على حساب القيم الخلقية أو المسؤولية الفردية بل لحسابها ودعما لها» [1].

ولا زلنا بالسيد المؤلف وهو يُلِحُّ على نَزْع الخنجر المسموم الذى ما زال ينزف دمًا بالجسم الإسلامى خنجر التربية الوافدة، يقول السيد المؤلف: «إننا نستطيع أن نستفيد من تجارب الأمم فى التربية والتعليم والثقافة ولتكن: على شريطة أن نبنى أساس التربية الإسلامية أولا ثم نقبل فى ضوئه أو نرفض ولتكن قاعدتنا هى: «خذ ما صفا ودع ما كدر».

«إن التنشئة الغربية لأحداث المسلمين ستنتهى حتمًا إلى زعزعة إرادتهم فى أن يعتقدوا أو ينظروا إلى أنفسهم أنهم ممثلوا الحضارة الربانية التى جاء بها الإسلام» [2].

ويعرض الكاتب للواقع الحالى فى ضوء مفهوم التربية الإسلامية، فيقول: «فى ضوء مفهوم التربية الإسلامية نرى مجتمعنا الحاضر الذى اعتمد على أساليب التربية الغربية الوافدة مضطربا غاية الاضطراب فى حاجة إلى تصحيح كثير وإلى إعادة النظر فى أساليبه ووسائله، فقد ضعفت مسؤولية الآباء والأمهات وتراخت، وحل التهاون محل الحزم عجزا من الآباء عن تقدير تبعتهم الخطيرة حتى بدا الأب منكورا من أبنائه وليس موضع ثقتهم فهم لا يستمعون إليه لأنه هو نفسه ليس نموذجا صالحًا، فالآباء يغيبون عن أسرهم ولا يتابعون أحوال أبنائهم ويتركونهم ومعهم أسئلتهم الحرجة ليتلقوا الإجابة عنها من الصحف أو من دعاة الانحلال (ويمضى المؤلف قائلا) ... والأم تقضى أغلب أوقاتها خارج البيت مع صديقاتها فى مواطن اللهو واللعب وقد تحولت البيوت إلى فنادق، وأصبحت أفلام السينما والمسرحيات هى التى تعطى مفاهيم الاجتماع وعلاقات

(١، ٢) السابق ص ١٥٣.

الرجل والمرأة، والآباء يتركون أبناءهم وبناتهم بغير رقابة من حيث اختيار أصدقائهم، وقد استهانوا بالصغائر وعجزوا عن فهم علاقة الملابس والزينة بتكوين رجولة الرجل وأنوثة الأنثى»[1].

وينتهى المؤلف فى هذا الفصل ليبرز معالم التربية الإسلامية فيما يأتى:

أولا: «منهج متكامل يعنى بتربية الجسم والروح والعقل جميعا بما يحقق التوازن والتكامل بين العناصر الثلاثة التى تتكون من مجموعها الشخصية الإنسانية[2].

ثانيا: وحدة الاتجاه أووحدة الفكر بمعنى أن تصوغ قاعدة عامة للنفس الإنسانية تلتقى فيها الأمة كلها على أرض الواقع، ولا يمنع هذا من الاختلاف فى الفروع.

ثالثا: يرى الإسلام أن الإنسان يولد وفيه عاملا الخير والشر والتربية هى التى توجهه إلى أحدهما: ﴿**قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها**﴾ [الشمس: ٩، ١٠].

رابعا: جعل الإسلام التربية منهجا وقدوة وجعل المنهج تطبيقا فى القدوة: ﴿**لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة**﴾ [الأحزاب: ٢١].

خامسا: الطبيعة الإنسانية مرنة ويمكن تشكيلها وهى أساس بناء الأمم والمجتمعات ويمكن عن طريقها تغيير العرف العام، ولذلك فقد عمد إليها المصلحون لبناء مجتمعات ناهضة.

سادسا: أهمية دور الأم البالغ فى إمداد الأبناء بالحنان والرحمة والحب والعاطفة ومدى خطر نقصان ذلك أو تلاشيه.

سابعا: الحرص على كمال الذاتية والطابع والنوع، فالأبناء لا بد أن يكون لهم تربية خاصة وزي خاص ومنطلق خاص لفهم الحياة وتعلم أمورها يختلف عن منطلق الفتاة وكذلك تبيان الملابس والزينة.

---

(١) المؤلف ص ١٥٩. (٢) السابق: ص ١٧٥.

ثامنا: إقامة أساس التربية على الترهيب والترغيب معا على طريقة الحزم الممزوج بالرفق والربط بين الإيناس والإيحاش على ألا يؤخذ الطفل بأول هفوة.

تاسعا: تربية الأبناء على الرجولة والخشونة (علموا أولادكم العوم والرماية ومروهم فليثبوا على الخيل وثبا).

عاشرا: القرآن هو مدخل الفكر واللسان والذكر فى كيان كل مسلم، فهو المصدر الأول للتعليم والتربية والأخلاق، وقد قدم لنا القرآن منهجا كاملا للمعرفة، عالم الطبيعة وعالم الغيب وعالم الآخرة ورسم لنا صورة كاملة عن نشأة الحياة وعن سر خلقنا.

حادى عشر: منحنا الإسلام نهج دورنا الحقيقى فى هذه الحياة ومسئوليتنا بها.

ثانى عشر: جعل الإسلام العبادات هى علامة الاتصال الدائم بالمصدر الأكبر وجعل ممارستها فى أوقات معينة مرتبطة ببناء الإرادة وإعداد النفس الإنسانية للترقى إلى الملأ الأعلى.

ثالث عشر: جعل الإسلام (الالتزام الأخلاقى) قاعدة البناء كله والقاسم المشترك على مختلف القيم والأوضاع.

رابع عشر: دعا الإسلام إلى الفكر والذكر ونعى على الغافلين»[1].

فى الفصلين الأخيرين من هذا الكتاب يتناول المؤلف الحديث عن مفهوم التعليم الإسلامى وكذلك مفهوم الثقافة الإسلامية، فيرى أن التعليم فى المفهوم الإسلامى يؤدى دوره فى نطاق التربية الإسلامية ... وأنه لا سبيل إلى نجاح رسالة التعليم إلا إذا قامت وفق منهج تربوى صحيح، فالتربية للفرد والتعليم للمجتمع»[2].

---

(١) ص ١٨٣، ١٨٤ من كتاب التربية وبناء الأجيال.

(٢) المصدر السابق: ص ١٨٥.

ويزيد المؤلف فى توضيح هذه النقطة فيقول: «فالتربية هى إعداد للنشء من ناحية إعداد الأطر النفسية والاجتماعية القادرة على حمل أمانة رسالة العلم على أساس نظرية الحياة التى يؤمن بها الناشئ والهدف الذى يتجه إليه فردا وأمة وجماعة وفى إطار الأمانة المنوطة به والمسئولية القائمة فى عنقه».

ولكن ما الغاية من التعليم فى التصور الإسلامى؟

يجيب المؤلف «فالتعليم ليس من أجل منطلق حر لا ضابط له ولكن من أجل دعم نظرية الحياة لأمة، ذلك أن الأمة صاحبة الرسالة، يجب أن تقوم على الصغار بالتربية والتعليم ليكونوا ورثة صالحين لهدى ولنظام مجتمعها، وعليها من أجل ذلك أن تصوغهم فى قوالب عقائدها ومناهج حياتها»[1].

وقفه لا بد منها حول واقع التربية والتعليم اليوم:

يستمر الباحث فى التصدى لبيان الهدف من التربية والتعليم فيقول: «إذا كانت التربية تستهدف تكوين شخصية الفرد فإن التعليم يستهدف تكوين شخصية الأمة، فهل استطاع التعليم الوطنى فى العالم الإسلامى خلال هذه الأجيال الأخيرة أن يحقق هذا الهدف وأن يخرج الجماعة الفاهمة لدورها ورسالتها القادرة على حمل هذه الرسالة فى العالمية، المستطيعة أن تحمى نفسها من غارات المعتدين وغزوات الآخرين؟ ذلك ما تجيب عنه وقائع التاريخ بالنفى البات، وهذا ما قصدت إليه القوى الاستعمارية وما حققته حين أخرجت المسلمين والعرب من إطار نظامهم التربوى والتعليمى الذى خرَّجَ أولئك الأعلام النوابغ فى مجالات الحرب والسلم والحكم والعلم والفكر مما تزدهى بأسمائهم وأعمالهم صفحات التاريخ»[2].

ولكن ماذا عن حصاد التجربة التعليمية فى بلاد الإسلام الآن؟

يجيب المؤلف قائلا: «وإن نظرة على الشباب المسلم فى آخر مراحله التعليمية فى الجامعة لتكشف عن أن مراحل التعليم كلها عجزت عن أن تقدم له

---

(١) المصدر نفسه ص ١٨٦.

(٢) السابق: ص ١٩٢.

هدف بناء نفسه أو هدف بناء أمته وأنها شغلته بمعلومات ومناهج من شأنها أن تجعله شاكا، مترددا حالما مضطربا، ممزقا فلا أجابت هذه المناهج عن حاجاته النفسية، ولا هي قدمت إليه هدف أمته الحقيقي في الحياة » [١].

وماذا عن الآثار الضارة لنظام التعليم الغربي وأخطاره في أفق المجتمع الإسلامي ؟؟

هذا ما يعرض له المؤلف بعد ما انتهى في تناوله لموضوع « التعليم الإسلامي » لينبه إلى عدد من الأخطار والآثار الضارة التي نتجت عن تجربة الاقتباس وتطبيق نظم التعليم بمناهجها الغربية فيذكر المحاذير الآتية :

١ – دراسة اللغة الأجنبية والاهتمام بها على حساب اللغة الأصلية والقومية للبلاد العربية والإسلامية بخلق ولاء فكرى للأجنبى صاحب اللغة (الأصلية) فنرى دارس الفرنسية أسير الفرنسية – أو يكاد – هواه دائما وأبدا نحو (عاصمة النور !) والسربون وكذا دارسى الإنكليزية » .

٢ – يرى المؤلف أن المدرسة العصرية في التربية والتعليم قد اهتمت بالنظريات الفلسفية والأفكار الخيالية والعلوم الإنسانية من خلال المنظور الأوربى على حساب العلوم العلمية والمعارف الكونية .

٣ – يشير المؤلف إلى ملاحظة المستشرق (جب) والمستشرق ولفرد كانتول سمث « الإباحية والإلحاد اللذان يسودان الشباب المسلم (مردهما) إلى مناهج المدرسة العصرية، وينقل نص كلام جب في هذه النقطة فيقول : « إن النشاط التعليمى والثقافى (عن طريق المدارس العصرية والصحافة) قد ترك في المسلمين من غير وعى منهم أثرا جعلهم يبدون في مظهرهم العام لا دينيين إلى حد بعيد » [٢].

٤ – يرى المؤلف رابعا أن المدرسة الإسلامية وفهمها في التعليم جديران بأن يشفيا لهفة البشرية جمعاء إلى تصور تربوى يجمع بين المثالية والواقعية ويُرضى

(١ ، ٢) السابق: ص ١٩٢ .

طموح المصلحين وذلك عن طريق تبنى وجهة نظر المسلمين إلى الإنسان ككل موحد، ويستطرد السيد المؤلف مشيرا إلى الأسس التى تبناها الدكتور محمد فاضل الجمالى بهذا الخصوص، يقول المؤلف: « وصدق الدكتور الجمالى حين قال إن أسس الإسلام فى التربية والتعليم يمكن أن تفتح الطريق لكل أساس صحيح وثابت لبناء تربوى قويم يقوم على:

- الإيمان بالخالق.
- العمل الصالح لخدمة الإنسان والأسرة والأمة والإنسانية.
- التواصى بالحق، والسعى وراء الحقيقة وتحرى فى العلم والمعرفة الصحيحة ونشرها بين الناس.
- التواصى بالصبر: ويشتمل على ضبط النفس الذى يعد المفتاح لكل سلوك أخلاقى كريم وسورة (العصر) فيها تلخيص كل فلسفة تربوية صحيحة » (١).

ويقول: ومن المؤسف أن التربية الغربية قد أظهرت ضعفها فى هذه النواحى سواء فى التطبيق فى الغرب ذاته أو مما اقتبسه العالم الإسلامى من الغرب » (٢).

٥ – ينبه السيد المؤلف خامسا إلى كون نظريات الغرب سواء فى العلوم أو الآداب أو التربية تصورات وفروض ومحاولات قابلة للنجاح والإخفاق وعرضة للصواب والخطأ، ولا ينبغى أن نتناولها كما يحدث فى بلادنا باعتبارها لا رجوع عنها ولا مناقشة فى أصولها.

٦ – يرى المؤلف أنه لا يمكن أن تقوم نهضة عربية إسلامية فى حقل العلوم التجريبية إلا فى إطار اللغة العربية، ويؤكد المؤلف أن كل دعوة إلى قبول العلم فى لغات الغرب هو تعويق لهذه النهضة.

(١، ٢) السابق: ص ٢١٢، ٢١٣.

٧ – يرى المؤلف عدم جدوى أسلوب الرتق والترقيع للثوب الخَلَق بقطعة من هنا واقتباس من هناك، ويصرح السيد المؤلف بأنه لا بد من إعادة بناء منهج التربية والتعليم الإسلامى على أساس قرآنى إسلامى صحيح، وفق منهج الإسلام نفسه.

يقول المؤلف فى توضيح أكثر مشيرا إلى تضارب فلسفات التربية الأوربية «فهناك العقلانية والمادية والماركسية والوجودية والفرويدية والبرجماتية والديوية كلها تتضارب وتتعاكس وتفسد كل شئ، ويقف الإسلام منها فى أصوله القليلة المنثورة هنا وهناك موقف الحيرة كأنه شئ غريب أو منبوذ.

والسبيل الأصيل (كما يرى المؤلف) هو أن يكون للعلوم التجريبية منهج وللعلوم الإنسانية منهج آخر وأن لا يدرس الإنسان فى دائرة المادة أو دائرة الحيوان [١].

٨ – يشير المؤلف ثامنا إلى ارتباط التربية والتعليم بالأيدلوجية السائدة فى الأمة وتصورها للكون والحياة نجد هذا فى الدول التى تلتزم بالأيدلوجية الماركسية فنجد التعليم الشيوعى ونجد الشيوعية تبسط سلطانها وتدس أنفها فى كل صغير وكبير فى مجال التعليم والتربية والبحث العلمى.

أرأيت كيف أن الأيدلوجية الماركسية تبسط سلطانها على البحث العلمى والمعامل الكيمائية والعلم، وينقل الكاتب الكريم بهذا الصدد قول (جورمن) العالم الطبيعى السوفيتى: «أن العلم الروسى ليس قسما من أقسام العلم العالمى، أنه قسم منفصل بذاته يختلف عن سائر الأقسام كل الاختلاف، فإن سمة العلم السوفيتى الأساسية أنه قائم على فلسفة واضحة متميزة، إن التحقيقات العلمية لا تزال فى حاجة إلى أساس وإن أساس علومنا الطبيعية هو «الفلسفة المادية» التى قدمها ماركس وانجلز ولينين وستالين» [٢].

---

(١) السابق: ص ٢١٥.

(٢) اقرأ الأستاذ الجندى من ص ٢٠٨ إلى ٢١١ ومن ٢١٣ إلى ٢١٧.

وليس الماركسيون بدعًا فى هذا فمن المسلمات التى درسناها فى التربية المقارنة كيف أن التربية والتعليم يرتبطان ارتباطا وثيقا بنظرية الحياة فى أوربا كذلك وكذا ولسنا عن تجربة (إسرائيل) واليهود ببعيد فالتعليم والتصور التربوى مستمد من عقيدتهم. ويهدف لتحقيق غايتهم.

وفى ختام هذا البحث القيم وبعد ما عرض أستاذنا المؤلف التربية فى إطار الإسلام وتصوره وكذا التعليم والعلاقة بينهما يتناول الأستاذ الفاضل معالجة الثقافة فى المنظور الإسلامى.

والثقافة كمصطلح أوربى (Culture) تعنى منهج الأمة فى الحياة بما تشتمل عليه من عقائد ومعاملات وعادات وأفكار وحضارة وهى من ثمّ مادية وغير مادية فهى كما تعنى بتفكير أمة ما تعنى بحضارتها وأساليب حياتها الحضارية، فالثقافة إذن هى المرآة التى تعكس السلوك التربوى والتعليمى فى ممارسات تدل على جوهر الفكر وأصالة الأمة وروح الجماعة.

ويذهب الأستاذ المؤلف مذهب الرفض من هذا الاتجاه الذى يرى الثقافة نتاجا عالميا يتجاوز الوطنيات والقوميات ويرى فى ذلك مغالطة كبرى وزيفا واضحا، ذلك لأن الثقافة حسب التعريفات الغربية ووفق المفهوم الغربى خاصة وذاتية فثقافة الغرب تختلف عن ثقافة الشرق، وما نراه فى الغرب من أنماط التفكير وممارسات السلوك الحيوى يختلف عما نراه فى الشرق من مظاهر التفكير ومختلف ممارسات النشاط السلوكى والحيوى.

ويقدم الباحث تصوره للثقافة فيقول: «فالثقافة فى إجماع الباحثين هى موقف فكرى وعمل من تراث البشرية وهى تحقيق للقيم الثابتة فى أمة معينة، وهى نسيج وحدة من النظم والأفكار والعقائد والأهداف والأمال والمثل العليا، كذلك فإن لكل مجتمع ثقافته التى يتسم بها ولكل ثقافة مميزاتها وحضارتها التى تحدد شخصيتها، بل لقد رأى البعض أن الثقافة ليست مجموعة من الأفكار ولكنها نظرية فى السلوك»[1].

---

(١) السابق: ص ٢٢٢.

ويمضى المؤلف فى تبيان جوانب هذه النقطة ليؤكد بأن هدف الثقافة الإسلامية إقامة العدل وتتم فى اللغة العربية فهى عربية من حيث الوعاء إسلامية من حيث المحتوى والمضمون (Contant) مستقلة من حيث الجهة فهى ليست شرقية ولا غربية وإنما تستمد ذاتها ومحتواها من التوحيد الإسلامى والقرآن والسنة.

وينهى المؤلف رحلته فى آفاق هذا البحث ورحلتنا بصحبة المؤلف فى هذا البحث بينما أرى المؤلف وكأنه يشد على أيدينا ويأخذ بأصبعنا واضعًا إياه على بعض المحاذير مشيرا إلى معطيات الاحتكاك الثقافى بين الثقافتين العربية والإسلامية من جهة والغربية والمستوردة من جهة أخرى ومن هذه المحاذير ما يأتى : -

١ - لا ترى الثقافة الغربية «الدين» جزءا أساسيا فى بناء محتواها وإقامة كينونتها، هذا فضلا عن رؤية الثقافة الماركسية التى ترى فى الدين معوقا أساسيا للتقدم بل تراه مخدرا للشعوب وأفيونا لها، على النقيض من ذلك نرى الإسلام والثقافة الإسلامية محورية يدور محورها حول التوحيد بالمفهوم الربانى والإسلامى.

٢ - ترى الثقافة الغربية بأن محتواها ونتائجها لخدمة الإنسان الأوربى قبل غيره وعلى حساب غيره بينما تؤمن الثقافة الإسلامية بالطابع الإنسانى والغاية الإنسانية.

٣ - تؤمن الثقافة الأوربية بتبنى الميكافيلية فى حل المشاكل بفصل الدين عن الأخلاق فى ممارسات السياسة ترجمة لقاعدة الميكافيلية (الغاية تبرر الوسيلة).

٤ - تقوم الثقافة الغربية على أساس فصل الضمير عن العلم وسيادة المادة على الضمير بينما ترى الثقافة الإسلامية فى الضمير أساسها فى منطلق العلم والحضارة.

٥ – ترى الثقافة الغربية الإنسان وكأنه عبد لغرائزه تسيره شهواته وتصور معظم مظاهر سلوكه عن التفكير الباطن كما ذهب فرويد ويونج، وتلك مفاهيم تتعارض تماما مع المفهوم الإسلامى الذى يكرم الإنسان ويجعله مستخلفا فى الأرض يقوم على عمادتها ونصرة الحق فيها وعبادة الله وحرب الباطل والانتصار للمظلوم والجهاد فى سبيل الله.

٦ – يثبت المؤلف سادسا رؤية الثقافة الغربية للإنسان، فهى تُعلي من بعض الأجناس والألوان والدماء، وتحاول بهذا الإعلاء «كما يقول المؤلف» أن تجعل لها حق القيادة وتلك أمور ليست موجودة لدى المسلمين الذين يؤمنون كما علمهم الإسلام العظيم ونبيه الكريم بقوله تعالى ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾ [الحجرات:١٣] وهدى النبى الكريم بهذا الشأن فلا فضل لعربى على أعجمى ولا أبيض على أسود إلا بالتقوى والعمل الصالح».

– جزى الله المؤلف الكريم عن الإسلام عقيدةً وشريعةً وتربيةً وثقافةً خير الجزاء.

* * *